تفسير سورةُ الحج
من آية (42) إلى آية (54)
اللقاء السابع

المعنى الإجمالي من آية (38) إلى آية (41):

يقولُ الله تعالى: إنَّ اللهَ تعالى يَدفَعُ عن المؤمِنينَ عُدوانَ الكُفَّارِ، وكَيدَ الأشرارِ؛ لأنَّه عَزَّ وجَلَّ لا يُحِبُّ كُلَّ خوَّانٍ لأمانةِ رَبِّه، جَحودٍ لنِعمَتِه.

أَذِنَ اللهُ للمُسلِمينَ في القِتالِ؛ بسَبَبِ ما وقَعَ عليهم مِن الظُّلْمِ والعُدوانِ، وإنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على نَصرِهم، وإذلالِ عَدوِّهم؛ الذين أخرَجَهم الكُفَّارُ ظُلمًا مِن ديارِهم، لا لِشَيءٍ فَعَلوه إلَّا لأنَّهم أسلَموا وقالوا: ربُّنا اللهُ وَحْدَه. ولولا ما شَرَعَه اللهُ مِن دَفْعِ المشرِكينَ بالمجاهِدينَ بتشريعِ الجهادِ، لَخُرِّبَت الأرضُ، وهُدِّمَت فيها أماكِنُ العِبادةِ؛ مِن معابدِ الرُّهبانِ، ومعابدِ النَّصارى، ومَعابِدِ اليَهودِ، ومساجِدِ المسلِمينَ التي يُصَلُّونَ فيها، ويَذكُرونَ اسمَ اللهِ فيها كثيرًا.

ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يجاهِدُ في سَبيلِه؛ لِتَكونَ كَلِمتُه هي العُليا؛ إنَّ اللهَ لَقَويٌّ لا يُغالَبُ، عزيزٌ لا يُرامُ.

الذينَ إنْ مكَّنَّاهم في الأرضِ، واستَخْلَفْناهم فيها، وأظهَرْناهم على عَدُوِّهم؛ أقاموا الصَّلاةَ، وأخرَجوا زَكاةَ أموالِهم إلى أهلِها، وأمَروا بالمعروفِ، ونَهَوا عن المنكَرِ، ولله وَحْدَه مَصيرُ الأمورِ كُلِّها.

أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾﴿42﴾

قال الرازي: لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى -فيما تقدَّمَ- إخراجَ الكُفَّارِ المؤمِنينَ مِن ديارِهم بغَيرِ حَقٍّ، وأذِنَ في مُقاتَلتِهم، وضَمِنَ للرَّسولِ والمؤمِنينَ النُّصرةَ، وبيَّنَ أنَّ لله عاقِبةَ الأمورِ- أردَفَه بما يجري مَجرى التَّسليةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الصَّبرِ على ما هم عليه مِن أذيَّتِه وأذيَّةِ المؤمِنينَ بالتَّكذيبِ وغَيرِه.

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ) أي: وإن يُكذِّبْك -يا مُحَمَّدُ- قَومُك المشرِكونَ على ما جِئْتَهم به مِنَ الحَقِّ، فذلك سنَّةُ إخوانِهم مِن الأُمَمِ الخاليةِ المكذِّبةِ لرُسُلِ اللهِ، ولستَ بأوَّلِ رَسولٍ كُذِّبَ؛ فقد كذَّبَت قَبلَ قَومِك قومُ نوحٍ، وعادٌ: قومُ هودٍ، وثمودُ: قومُ صالحٍ. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (هذا تَسليةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتعزيةٌ، أي: كان قبْلَك أنبياءُ كُذِّبوا، فصَبَروا إلى أن أهلَكَ اللهُ المكذِّبينَ؛ فاقتَدِ بهم واصبِرْ).

وقال عز وجل: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) [الأحقاف: 35].

﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾﴿43﴾

(وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ) أي: وكذَّب قَبلَ قَومِك -يا مُحَمَّدُ- قومُ إبراهيمَ، وقومُ لوطٍ. موسوعة التفسير

﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾﴿44﴾

(وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ) أي: وكذَّب قومُ شُعَيبٍ. موسوعة التفسير

(وَكُذِّبَ مُوسَى) أي: وكذَّب فِرعَونُ وقَومُه رسولَهم مُوسى. موسوعة التفسير

قال الرازي: أنَّ الإبهامَ في بناءِ الفِعلِ للمَفعولِ؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، أي: وكُذِّبَ مُوسى أيضًا، مع وُضوحِ آياتِه، وعِظَمِ مُعجِزاتِه، فما ظَنُّك بغَيرِه؟! للإيذانِ بأنَّ تكذيبَهم له كان في غَايةِ الشَّناعةِ؛ لكونِ آياتِه في كَمالِ الوُضوحِ؛ فتَكذيبُه كان أشنَعَ، وآياتُه كانت أعظَمَ.

كما قال تعالى: (وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ) [القمر: 41- 42].

(فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ) أي: فأمهَلْتُ الكافِرينَ فلمْ أُعاجِلْهم بالعُقوبةِ لَمَّا كَذَّبوا رسُلَهم، ثمَّ أخَذْتُهم بالعذابِ في الوقتِ المحدَّدِ لإهلاكِهم. موسوعة التفسير

❁فَأَمْلَيْتُ: أي: أمهَلْتُ وأطَلْتُ لهم المدَّةَ.

قال السعدي: فسَتَرجِعُ إلى اللهِ فيُعَذِّبُها بذُنوبِها؛ فلْيَحذَرِ الظَّالِمونَ مِن حُلولِ عِقابِ اللهِ، ولا يغتَرُّوا بالإمهالِ.

وقال عزَّ وجلَّ: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [العنكبوت: 40].

(فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) أي: فانظُرْ -يا مُحَمَّدُ- كيف كانت مُعاقَبتي لهم؟ فلْيَعتَبِرْ بذلك هؤلاء المكَذِّبونَ مِن قَومِك أن يُصيبَهم ما أصاب أولئكَ؛ فإنَّهم ليسوا خَيرًا منهم. موسوعة التفسير

❁نَكِيرِ: أي: نَكالي وعِقابي وانتِصاري لرُسُلي.

قال القصاب: دَلالةٌ على أنَّ المغتَمَّ بالشَّيءِ قد يتسلَّى بأنْ يكونَ له في مُصيبتِه شَريكٌ، ألا ترى إلى اللهِ جَلَّ جَلالُه كيف عَزَّى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمُشاركةِ مَن مضى قَبْلَه مِن الأنبياءِ في تكذيبِ قَومِهم إيَّاهم، واحتِمالِ مَضَضِه وأذاهم؛ فدَلَّ على أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وغَيرَه من الأنبياءِ صَلواتُ اللهِ عليهم كانوا يغتَمُّونَ مِن تَكذيبِ قَومِهم إيَّاهم.

قال -ﷺ-:"رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِن هذا فَصَبَرَ". صحيح البخاري

📁من أهمِّ السننِ الربانيةِ التي تزيلُ اللَّبسَ والشَّكَّ الذي يمكن أن يتسرَّبَ إلى قلوبِ كثيرٍ من المؤمنين؛ سنة "الإملاء للظالمين".

✉فإنَّ أكثرَ شيءٍ يُثيرُ حفيظةَ النَّفوسِ هو الظُّلمُ والقهرُ والاستعبادُ، ومعاشرةُ الذُّلِ والاستبداد، ورؤية الظَّالم وتسلُّطِه وتمكُّنِه، وتتساءلُ عنْ مصيرِه ونهايتِه، وغالبُ النَّاسِ لا يُبْصر إلا تحت قدميه، فإذا رأى ما هو عليه من السُّلْطَةِ والتمكُّنِ ظنَّ أنْ لنْ يقدرَ عليه أحدٌ، وأنَّ يدهُ فوقَ كلِّ يدٍ، ونَسِيَ سنَّةَ اللهِ في الَّذين ظلموا، وغَفِلَ عن سنَّةِ الإملاء والاسْتِدْراجِ، ونحنُ بحاجةٍ للوقوف عندها معْ ما نراهُ منْ تسلُّطِ الظالمين وانتشارِ الظُّلم بكلِّ صوره وأنواعه، فَيَدُ الظُّلمِ-مهما طالتْ-فإنَّ بَتْرَهَا قريبٌ، وخُطَى الظالم-وإنِ امتدَّت-فبترُها ليس بالبعيد، ولما أخبر الله عن قوم لوطٍ وما أنزل بهم من النَّكال؛ عقَّب-سبحانه-بعد ذلك بقوله: (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)[هود:38]؛ لئلا يَظُنَّ أهلُ الظُّلمِ أنَّهم بمَنْأَى عن ذلك، قال قتادة -رحمه الله-: "والله ما أجار الله منها ظالماً بعد قوم لوط، فاتقوا الله وكونوا منه على حذر".

✉إملاءُ اللهِ للظَّالمين هو إرجاءُ عقوبَتِهم، وإمهالُهم إلى أجلٍ مسمَّى، مع إمدادهم بالنِّعم وإمتاعهم بزهرةِ الدُّنيا وزينتِها -مكراً بهم وكيداً لهم-؛ ليزدادوا إثماً وبغياً وطغياناً وكفراً.

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملِي للظَّالِمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، قال: ثمَّ قرأ: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ هود: 102).

✉كثيرٌ من النَّاس يظنُّ أنَّ عقوبةَ اللهِ للظَّالم، تكونُ سريعة بعد ظلمه مباشرةً، ويمكثُ يرقبُ نزول انتقام الله-عز وجل-العاجل على الظَّالم، فإذا ما تأخرتِ العقوبةُ، ولم ير بعينه مصارعَ الظَّالمين شكَّ ويأسَ وَقنِطَ، وهذا خطأٌ كله، وعدمُ فهمٍ لتعامل الله -عز وجل-مع الظالمين.

📁فالظالم يمرُّ بأربع مراحل-قبل أن يحَقَّ عليهِ القول-لا بدَّ من فهمها جيداً:

المرحلة الأولى: الإمهال والإملاء: (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) [القلم: 45] وفيها يمهل الله الظَّالم لعلَّه يتوبُ أو يرجع عمَّا فعل.

المرحلة الثانية: الاستدراج: (...سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) [القلم:44] وليس معناه أن تضيقَ الدَّنيا عليه، لا، بل تُفْتَحُ عليه الُّدنيا وترتفع الدرجة، وتبسط عليه اللذات، ويعطيه الله ما يطلب ويرجو، بل وفوق ما طلب؛ لأن الدرج يدل على الارتفاع، والدرك يدل على النزول.

المرحلة الثالثة: التزيين: (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ...) [العنكبوت: 38]، وفيها يموتُ قلبُ الظَّالم فيرى ما يراهُ حسناً بل هو الواجب فعله، لم يعد في قلبه حياةٌ؛ ليلومه على ما يفعل.

المرحلة الرابعة: الأخذ: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [هود:102]، وفيها تتنزَّلُ العقوبةُ من الله-تعالى-على الظَّالم وتكون العقوبةُ شديدةٌ-جداً-بحيث تكون عبرة وعظة للعالمين. وهي قد تكون في الدنيا؛ ليرتدع بها الناس، وينزجر بها من تُسَوِّلُ له نفسُه سلوكَ

نفسِ الطريقِ، وقد يؤخرها الله-عز وجل-ليوم القيامة حيثُ العقوبةُ أَشَدُّ، والفضيحةُ أخزى، قال تعالى: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء) [إبراهيم:42- 43].

☒ففي الإملاء للظالمين وتركهم يتسلَّطون على المظلومين في مدة من الزمن، ابتلاءٌ وتمحيصٌ وتطهيرٌ للمؤمنِ من الدخائل والشوائب وحب الدنيا والتنافس عليها، وتميِّز المؤمنُ الصادق من المنافق الكاذب.

☒فإنَّ من رحمة الله -عز وجل-بعباده أنَّه يمهلهم ولا يهملهم، فإذا ظلموا وطغوا وتجبروا؛ فإنه-سبحانه وتعالى-يمهلهم حيناً من الدهر؛ لعلهم يتوبون وينزعون ويرجعون عن طرق الغواية والضلال وظلم الناس، فإذا أصرُّوا على ظلمهم وطغيانهم، وعاندوا واستكبروا؛ فإنَّه يفتح عليهم أبوابَ النَّعيم الدنيوي، ويُعطيهم من أسبابه ما يجعلهم يزدادون إثمًا وطغياناً كما قال تعالى: (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) [آل عمران: 178]، وقال تعالى: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ)[الأنعام:44]

☒فمعرفةُ السننِ الإلهيةِ وإمعانُ النظرِ فيها واستحضارها؛ من أعظم أسباب حياة القلبِ وإيمانِه وإجلالِه للخالقِ المدبرِ-سبحانه-ففيه تلوحُ الحكمةُ ظاهرةٌ في أمرِ تدبيرِ الكونِ ونظامِه، وأنَّه جارٍ على تلك السننِ المحْكمةِ التي لا تتغيّرُ ولا تتبَّدلُ، قال عز وجل: (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) [فاطر: 43].

☒وإرادةُ الله-تعالى-ومشيئتُه ليست مشيئةً مجردةً، بل هي مشيئةٌ صادرةٌ عن حكمةٍ بالغةٍ، والعارفون بربهم-عز وجل-يعلمون ذلك ويوقنون به، ولذا فهم يحسنون الظنَّ بربهم ويحمدونه على كل ما يقدّره، ويوقنون بأنَّ عاقبةَ هذه البلاءات التي يقدّرها الله -عز وجل-هي خيرٌ ومصلحةٌ ولطفٌ بالموحدين ومع أنَّها مؤلمةٌ إلا أنَّنا نلمسُ لطفَ اللهِ-عز وجل-وحكمتَه ورحمتَه في أعطافها.

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾

﴿45﴾

(فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) أي: فكثيرٌ مِنَ القُرى أهلَكْنا أهلَها بالعَذابِ الشَّديدِ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم، فصارت بيوتُهم مُهَدَّمةً قد سقَطَت جُدرانُها فَوقَ سُقوفِها. موسوعة التفسير

❁خَاوِيَةٌ: أي: خالِيةٌ ساقِطةٌ.

❁عُرُوشِهَا: أي: سُقوفِها.

قال الشنقيطي: (المعنى: أنَّ السُّقوفَ سَقَطت ثمَّ سَقَطت عليها حِيطانُها، على أظهَرِ التَّفسيراتِ).

(وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) أي: وكثيرٌ مِن الآبارِ الصَّالِحةِ للانتِفاعِ عَطَّلْناها بإهلاكِ أهلِها وواردِيها، فلا يُستقَى منها مع بقاءِ بِنائِها وفَوَرانِ مائِها! وكثيرٌ مِن القُصورِ العاليةِ المجصَّصةِ المَنيعةِ المحكَمةِ خَلت من سُكَّانِها بعد هَلاكِهم، فغَدَت مُوحِشةً، بعد أن كانت بأهلِها عامِرةً ومُؤنسةً. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا) [الطلاق: 8، 9].

وهذهِ الدارُ لا تُبْقي على أحدٍ ... ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ

أينَ الملوكُ ذوو التيجانِ من يَمَنٍ ... وأينَ مِنْهُمْ أكَاليلٌ وتِيجانُ

وأينَ ما شَادَهُ شَدَّادُ في إرمٍ ... وأين ما سَاسَه في الفرس ساسانُ

وأينَ ما حازَهُ قَارُونُ من ذَهَبٍ ... وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ

أتى على الكلِّ أمرٌ لا مَرَدَّ له ... حتى قضوا فكأنَّ القومَ ما كانوا

وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلكٍ ومنْ مَلكٍ ... كما حَكَى عَنْ خيالِ الطيفِ وَسْنانُ

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿46﴾

قال الرازي: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى مَن كذَّبَ الرُّسُلَ مِن الأُمَمِ الخالية، وكان عِندَ العَرَبِ أشياءُ مِن أحوالِهم يَنقُلونَها، وهم عارِفونَ بِبلادِهم، وكثيرًا ما يَمُرُّونَ على كثيرٍ منها- قال: أَفَلَمْ يَسِيرُوا، فاحتَمَلَ أن يكونَ حَثًّا على السَّفَرِ لِيُشاهِدوا مصارِعَ الكُفَّارِ فيَعتَبِروا، أو يكونوا قد سافَروا وشاهَدوا فلم يَعتَبِروا، فجُعِلوا كأنْ لم يُسافِروا ولم يَرَوا.

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) أي: أفلمْ يَسِرْ كُفَّارُ قُرَيشٍ في الأرضِ؛ لِيَنظُروا آثارَ الأُمَمِ المكَذِّبةِ مِن قَبلِهم، فيتسبَّبَ عن ذلك أن تكونَ لهم قلوبٌ واعِيةٌ يَعقِلونَ بها ما رأَوه في الآياتِ المرئيَّاتِ مِنَ الدَّلالةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرَتِه وغيرِ ذلك، فيتَفَكَّروا ويتَّعِظوا قبْلَ أن يَحُلَّ بهم ما أصاب أولئكَ القَومَ. موسوعة التفسير

وقال سُبحانَه: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) [مُحَمَّد: 10].

(أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) أي: أو يتسبَّبَ عن سَيرِهم ورُؤيَتِهم آثارَ مَن سَبَقَهم مِن أُمَمِ الكُفرِ أن تكونَ لهم آذانٌ واعِيةٌ يَسمعَونَ بها سَماعَ تَدَبُّرٍ وعِظَةٍ، فيُمَيِّزوا بين الحَقِّ والباطِلِ، ويَعرِفوا أخبارَ الأُمَمِ الماضيةِ، وسَبَبَ هلاكِهم، فيَحذَروا أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم. موسوعة التفسير

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) أي: لا تَعمى أبصارُ الكُفَّارِ؛ فأَعيُنُهم مُبصِرةٌ يَرَونَ بها المرئيَّاتِ، ولكِنَّ قُلوبَهم هي التي تَعمَى عن رُؤيةِ الحَقائِقِ وإدراكِها، والانتِفاعِ بها، فهذا هو العَمَى المهلِكُ لصاحِبِه. موسوعة التفسير

قال الرازي: المقصودُ منه ذِكرُ ما يتكامَلُ به ذلك الاعتِبارُ؛ لأنَّ الرُّؤيةَ لها حَظٌّ عَظيمٌ في الاعتِبارِ، وكذلك استِماعُ الأخبارِ فيه مَدخَلٌ، ولكِنْ لا يَكمُلُ هذان الأمرانِ إلَّا بتدَبُّرِ القَلبِ؛ لأنَّ مَن عايَن وسَمِع، ثمَّ لم يتدبَّرْ ولم يَعتَبِرْ، لم ينتَفِعْ البتَّةَ، ولو تفكَّرَ فيما سَمِعَ لانتفَعَ؛ فلهذا قال: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.

قال ابن أبي حاتم: القَلبُ مِن شَأنِهِ أن يُبصِرَ؛ فإنَّ بَصَرَه هو البَصَرُ، وعَماه هو العَمى، وعن قَتادَةَ في قولِه: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ قالَ: (ما هذه الأبصارُ التي في الرؤوسِ؛ فإنَّها جعَلها الله منفعةً وبلغةً، وأمَّا البصرُ النافعُ فهو في القلبِ).

كما قال تعالى: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) [البقرة: 171]

وقال سُبحانَه: (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) [الإسراء: 72].

من جلائل النِّعم وقلائد المِنَن، نعمة البصيرة في الدِّين، والبصيرة نور يقذفه الله في القلب، يفرِّق ما بين الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة.

وليس الأعمى من لا يبصر بعينيه، ولكن الأعمى مَنْ جَهِلَ حقَّ اللهِ عليه، ذهَب بصرُ حَبْرِ الأمةِ عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– في آخر حياته، فأنشد:

إنْ يأخذ اللهُ من عينيَّ نورهما***ففي لساني وقلبي منهما نور

قلبي ذَكِيٌّ وعقلي غير ذي دَخَلٍ***وفي فمي صارم كالسيف مأثور

قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: " وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ..." الآيةَ، هو مثل ضربه الله لأهل الطاعة وأهل المعصية، وقد قيل: "لكل إنسان أربعة أعين؛ عينانِ في رأسه لدنياه، وعينانِ في قلبه لآخرته، فإن عميت عينَا رأسِه وأبصرت عينَا قلبه لم يَضُرَّه عماه شيئا، وإن أبصرت عينَا رأسِه وعميت عينَا قلبِه لم ينفعه نظرُه شيئًا، وأي حاجة للأسماع والأبصار إن لم يسمع الإنسانُ الحقَّ بأذنيه، ويبصر الهدى بعينيه.

ومن صفات أهل الإيمان أنهم يقَاظُ القلوبِ، فهماءُ العقولِ، يَعُونَ عن الله أمرَه ونهيه، ووعده ووعيده، إذا تُليت عليهم آياتُه أَكَبُّوا عليها سامعينَ، واعينَ مراعينَ، بآذان سمعتها وقلوب وعتها، لا يتغافلون عن مواعظه، ولا يستكبرون عن عبادته، كما يفعل الصمُّ الذين لا يسمعون، والعميُ الذين لا يبصرون، قال ربنا –جل وعلا–: (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) [الْفُرْقَانِ: 73]، قال الحسن: "كَمْ من رجل يقرأه ويخر عليها أصمَّ وأعمى".

يجب علينا أن نهتم بتزكية قلوبنا وإصلاحها مع الاهتمام بإصلاح الظاهر، ومتى ما أصلح المسلم قلبه بالإخلاص والصدق والمحبة لله ولرسوله – ﷺ –، وبالأعمال الزّاكية استقامت جوارحه وصلح ظاهره.

إن أعظم عون للعبد على إصلاح قلبه هو تكثير الشواهد النافعة في القلب؛ لتقوى صلة القلب بالله، ويزداد يقينه ويكمل إيمانه، وتعظم محبته بربه –سبحانه وتعالى–.

❍ومن ذلك: أن يقوم في قلب المسلم حقارة الدنيا وقلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها وسرعة انقضائها، فيترحَّل قلبه عنها.

❍ومشاهدته للدار الآخرة ودوامها، وأن أهلها لا يرتحلون منها ولا يظعنون عنها، بل هي دار القرار ومحط الرحال ومنتهى السير للمؤمنين والفجار.

❍وأن يقوم بقلبه شاهد من النار وتوقدها، واضطرامها وبعد قعرها، وشدة حرِّها وعظيم عذاب أهلها فإذا رأى هذا المنظر الرهيب انخلع من الذنوب والمعاصي، ولبس ثوب الخوف والحذر، وبادر إلى الأعمال التي تصرفه عنها.

❍وأن يقوم بقلبه شاهد من الجنة وما أعد الله لأهلها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، دار قد جعل الله النعيم المقيم بحذافيره فيها، فهناك يكون سير القلب إلى ربه أسرع من الرياح في مهبها، فلا يلتفت في طريقه يميناً ولا شمالاً.

❍فإذا اعتنى العبد بتلك الشواهد في حياته، وأعمل فيها فكره كانت أعظم عون له على تطهير قلبه، وتنزيهه من الأوصاف الذميمة، والإرادات الدنيئة وعلى تخليته وتفريغه من التعلق بغير الله سبحانه، وكانت أعظم باعث له على العبادة والمحبة والخشية والإنابة والافتقار إلى الله والسعي في مرضاته -تبارك وتعالى-.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿47﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال المراغي: لَمَّا ذكر سبحانَه أنَّ المشركينَ كَذَّبوا رسولَه، وبالَغوا في تكذيبِه، وسلَّاه على ذلك بأنَّك لستَ ببِدْعٍ في الرسُلِ؛ فكثيرٌ مِمَّن قبلَك منهم قد كُذِّبوا وأُوذُوا، فلا تبتَئِسْ بما يفعلونَ، واصبِرْ على ما تدعو إليه، ولا يضيرَنَّك ما يأتونَ وما يَذَرونَ- قفَّى على ذلك ببيانِ أنَّهم لاستهزائِهم به وشديدِ تَكذيبِهم كانوا يَستَعجِلونَه العذابَ

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) أي: ويَستَعجِلُك الكُفَّارُ -يا مُحَمَّدُ- بنُزولِ عَذابِ اللهِ عليهم جَزاءَ شِرْكِهم به، واللهُ لن يُخلِفَ ما وعَدَ به مِن ذلك، وهو واقِعٌ بهم حَتْمًا في وَقتِه المحَدَّدِ.

موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [الأنفال: 32].

وقال سُبحانَه: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) [العنكبوت: 53- 54].

(وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) أي: هُم يَستَعجِلونَكَ بالعذابِ، ولكنَّ اللهَ تعالى حليمٌ لا يَعجَلُ به؛ فإنَّ مِقدارَ ألْفِ سَنةٍ عِندَ خَلْقِه كيَومٍ واحدٍ عِندَه، فالطَّويلُ عِندَهم مِنَ الزَّمنِ قَصيرٌ عِندَه، وليس عذابُهم عِندَه ببعيدٍ، فلا بدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ، فهو على الانتقامِ قادرٌ، لا يَفوتُه شَيءٌ، ولا فَرْقَ

بيْن وُقوعِ ما يَستَعجِلون به مِنَ العذابِ وتأخُّرِه في القُدرةِ، إلَّا أنَّه تَفضَّلَ بالإمهالِ؛ فلذلك لا يَعجَلُ بعقوبةِ مَن أرادَ عقوبتَه حتَّى يَبلُغَ غايةَ مُدَّتِه وإنْ تَطاوَلُوها، واستَبطَؤوا نُزولَ العذابِ، فإنَّ اللهَ يُمهِلُ المدَدَ الطَّويلةَ ولا يُهمِلُ، حتَّى إذا أَخَذَ الظَّالِمينَ بعذابِه لَمْ يُفْلِتْهُم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) [السجدة: 5].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَدخُلُ فُقَراءُ المسلمينَ الجَنَّةَ قَبلَ أغنيائِهم بنصفِ يومٍ، وهو خَمسُ مئةِ عامٍ)).

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ﴿48﴾

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) أي: وكَثيرٌ مِن القُرى أمهَلْتُ أهلَها، ولم أُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، مع ظُلمِهم بالشِّركِ والعِصيانِ، ثُمَّ عاقَبْتُهم في الدُّنيا، ومَرجِعُهم في الآخرةِ إليَّ، فأُعَذِّبُهم فيها أيضًا؛ فلْيَحذَرْ هؤلاء الظَّالِمونَ مِن ذلك، ولا يَغتَرُّوا بإمهالِ اللهِ لهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) [الغاشية: 25- 26].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿49﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال الشربيني: لَمَّا كان الاستِعجالُ لا يُطلَبُ مِنَ الرَّسولِ، وإنَّما يُطلَبُ مِنَ المرسِلِ؛ أمَرَه اللهُ تعالى بأن يُديمَ لهم التَّخويفَ والإنذارَ، بقَولِه تعالى

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ-: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّما أنا لكم نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، أُخَوِّفُكم عذابَ اللهِ، ولا أملِكُ تَعجيلَ العَذابِ عن وَقتِه ولا تأخيرَه، وليس عليَّ حِسابُكم. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: مُبينٌ لكم في إنذاري كلَّ ما ينفَعُكم، وما يضُرُّكم؛ لِتَجتَلِبوا النَّفعَ، وتجتَنِبوا الضرَّ.

كما قال تعالى: (إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) [ص: 70].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿50﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه يَجِبُ أن يقولَ للكافِرينَ: أنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ؛ أردَفَ ذلك بأنْ أمَرَه بوَعْدِهم ووَعيدِهم؛ لأنَّ الرَّجُلَ إنَّما يكونُ مُنذِرًا بذِكرِ الوَعدِ للمُطيعينَ، والوَعيدِ للعاصينَ

(فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) أي: فالذين آمَنوا بكُلِّ ما وجب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ؛ لهم مِنَ اللهِ سَترٌ لذُنوبِهم، وتَجاوُزٌ عن مُؤاخَذتِهم بها، ولهم رِزْقٌ حَسَنٌ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: إنَّ العملَ لا ينفعُ إلَّا إذا كان صالحًا، والصالحُ ما تضمَّن شيئينِ: الإخلاصَ لله، واتِّباعَ شريعتِه.

قال الرازي: يُبَيِّنُ أنَّ مَن جمَعَ بينَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، فاللهُ تعالى يجمَعُ له بينَ المغفِرةِ والرِّزقِ الكَريمِ.

قال ابنُ كثير: (قال محمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظي: إذا سَمِعتَ اللهَ تعالى يقولُ: وَرِزْقٌ كَرِيمٌ فهو الجنَّةُ).

قال ابنَ عاشور: جعَلَ رِزقَ الدُّنيا مَعنويًّا. وقولُه: وَرِزْقٌ كَرِيمٌ فيه وَصْفُ الرِّزقِ بالكريمِ، وهو يَجمَعُ وَفْرَتَه وصَفاءَه مِن المكدِّراتِ.

كما قال تعالى: (... لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [سبأ: 4].

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آَيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿51﴾

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آَيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) أي: والذينَ سَعَوْا في إبطالِ آياتِ القُرآنِ ورَدِّها، مُعانِدينَ ومُشاقِّينَ لله وظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَ اللهَ فلا يَقدِرُ عليهم، أو يَغلِبونَ أولياءَه فلا يَنصُرُهم؛ أولئك في الآخرةِ سُكَّانُ الجَحيمِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آَيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ) [سبأ: 5].

وقال سُبحانَه: (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آَيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) [سبأ: 38].

وقال عزَّ وجلَّ: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) [العنكبوت: 4].

سَعَوْا: السَّعْيُ: المشيُ السَّريعُ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، يُقالُ: سعَى في الأمرِ: إذا جَدَّ فيه لقصدِ إصلاحِه أو إفسادِه.

إطلاقِ السَّعيِ على الخيرِ والشَّرِّ مَعًا قال تعالَى: (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى).

"كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها" صحيح مسلم.

أي: كلُّ إنسانٍ يَسعى بنفسِه إلى طاعةِ اللهِ، فيكونُ مُنقِذًا لها منَ النَّارِ، أو يَسعَى بنفسِه إلى طاعةِ الشَّيطانِ وهَواه، فَيُهلِكُها بدُخولِها النَّارَ. الدرر السنية

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آَيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿52﴾

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) أي: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا مُحمَّدُ- مِن رَسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تلا وقرَأ ألقَى الشَّيطانُ في قراءتِه الشُّبَهَ والوَساوِسَ؛ لِيَصُدَّ النَّاسَ عن اتِّباعِ ما يَقرَؤُه ويَتْلوه. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: في هذه الآيةِ أَخبَرَ اللهُ سُبحانَه أنَّه ما أَرسَلَ مِن رسولٍ ولا نبيٍّ إلَّا إذا تَمَنَّى أَلقى الشَّيطانُ في أُمنيَّتِه، أي: إذا تَلَا أَلقى الشَّيطانُ في تِلاوتِه، فإذا كان هذا فِعْلَ الشَّيطانِ مع الرُّسُلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فكيف بغَيرِهم؟! ولهذا يُغَلِّطُ القارئَ تارةً، ويُخَبِّطُ عليه القِراءةَ ويُشَوِّشُها عليه؛ فيُخَبِّطُ عليه لسانَه، أو يُشَوِّشُ عليه ذِهنَه وقلبَه، فإذا حَضَرَ عِندَ القِراءةِ لَمْ يَعْدَمْ منه القارئُ هذا أو هذا، وربَّما جمَعَهما له؛ فكان مِن أهمِّ الأمورِ: الاستعاذةُ باللهِ تعالى منه عِندَ القِراءةِ.

(فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ) أي: فيُذهِبُ اللهُ ويُزيلُ ما يُلقيه الشَّيطانُ مِن الباطِلِ في قراءةِ نَبيِّه، ولا يتأثَّرُ بباطِلِه المؤمِنونَ. موسوعة التفسير

(ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) أي: ثمَّ يُخَلِّصُ اللهُ آياتِ كِتابِه مِنَ الباطِلِ الذي ألقاه الشَّيطانُ، ويَحفَظُها ويُبَيِّنُها، ويُظهِرُ أنَّها وحيٌ مُنَزَّلٌ منه بحَقٍّ. موسوعة التفسير

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أي: واللهُ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، فيَعلَمُ ما يكونُ مِن الأمورِ، وما يَحدُثُ في خَلْقِه، ومِن جملةِ ذلك عِلمُه بما يُوحيه إلى نبيِّه، وبقَصدِ الشَّيطانِ؛ حَكيمٌ في كُلِّ ما يفعَلُه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللائِقِ به، ومِن جُملةِ ذلك حِكمَتُه في تمكينِ الشَّيطانِ مِن إلقاءِ الباطِلِ، ومِن حِكمَتِه أنَّه لا يَدَعُه حتى يَكشِفَه ويُزيلَه. موسوعة التفسير

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿53﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه ما حكَمَ به مِن تمكينِ الشَّيطانِ مِن هذا الإلقاءِ؛ ذَكَرَ العِلَّةَ في ذلك، فقال

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) أي: مِن كَمالِ حِكمَتِه سُبحانَه أنْ مكَّن الشَّيطانَ مِن الإلقاءِ المذكورِ؛ ليَجعَلَ إلقاءَه فِتنةً للذينَ في قُلوبِهم شَكٌّ ونفاقٌ، ولأصحابِ القُلوبِ القاسيةِ التي لا تَلينُ للحقِّ، ولا تَرْجِعُ إلى الصَّوابِ، وهم المشركونَ. موسوعة التفسير

وقال سُبحانه: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ) [الأنعام: 112- 113].

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) أي: وإنَّ هذَينِ الفريقَينِ لَفي خِلافٍ ومُعانَدةٍ لأمرِ اللهِ، وضَلالٍ بَعيدٍ عن الحقِّ والصَّوابِ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم. موسوعة التفسير

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿54﴾

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ) أي: ولِيَعلَمَ الذين آتاهم اللهُ العِلمَ النَّافِعَ الذي يُفَرِّقونَ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ أنَّ ما أنزَلَه اللهُ هو الحَقُّ لا غيرُه مِمَّا ألقاه الشَّيطانُ، فيُؤمِنوا بالقُرآنِ، ويَعمَلوا به، ويَزدادوا هُدًى. موسوعة التفسير

(فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ) أي: فتَخضَعَ وتَلينَ قلوبُهم للحَقِّ الذي جاء مِن عِندِ اللهِ، وتَطمَئِنَّ به، وتُذعِنَ إليه وتُقِرَّ. موسوعة التفسير

(وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أي: وإنَّ اللهَ لَمُرشِدُ المؤمنينَ إلى طريقِ الحَقِّ، ومُوَفِّقُهم لاتِّباعِه واجتِنابِ الباطِلِ، فلا يَضُرُّهم كَيدُ الشَّيطانِ وإلقاؤُه الباطِلَ. موسوعة التفسير

قال ابنُ كثير: (وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ أي: في الدُّنيا والآخرةِ؛ أمَّا في الدنيا فيُرشِدُهم إلى الحَقِّ واتِّباعِه، ويوَفِّقُهم لمخالفةِ الباطِلِ واجتنابِه، وفي الآخرةِ يهديهم إلى الصِّراطِ المستَقيمِ الموصِلِ إلى دَرَجاتِ الجنَّاتِ، ويُزَحزِحُهم عن العذابِ الأليمِ والدَّرَكاتِ).

كما قال تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [البقرة: 257]

وقال سُبحانَه: (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) [مريم: 76].

قال ابن القيم: فذكَرَ القَلبَ المريضَ، وهو الضَّعيفُ المنحَلُّ الذي لا تَثبُتُ فيه صورةُ الحَقِّ، والقَلبَ القاسِيَ اليابِسَ الذي لا يَقبَلُها ولا تَنطَبِعُ فيه؛ فهذان القَلبانِ شَقِيَّانِ مُعَذَّبانِ، ثمَّ ذكَرَ القَلبَ المخبِتَ المطمَئِنَّ إليه، وهو الذي ينتَفِعُ بالقُرآنِ ويزكو به، فجَعَل اللهُ سُبحانَه وتعالى القلوبَ في هذه الآياتِ ثلاثةً: قلبَينِ مَفْتونَينِ، وقلْبًا ناجيًا؛ فالمفْتونانِ: القلبُ الذي فيه مرَضٌ، والقلبُ القاسي. والناجي: القلبُ المؤمِنُ المخبِتُ إلى ربِّه، وهو المطْمَئِنُّ إليه، الخاضعُ له، المستسلِمُ المنقادُ.

انقسمَتِ القلوبُ إلى هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ.

- فالقلبُ الصَّحيحُ السَّليمُ: ليس بيْنه وبيْن قَبولِ الحقِّ ومحبَّتِه وإيثارِه سِوى إدراكِه، فهو صحيحُ الإدراكِ للحقِّ، تامُّ الانقيادِ والقَبولِ له.
- والقلبُ الميِّتُ القاسي: لا يَقْبَلُه، ولا يَنقادُ له.
- والقلبُ المريضُ: إنْ غَلَبَ عليه مرَضُه التَحَقَ بالميِّتِ القاسي، وإنْ غَلَبَتْ عليه صِحَّتُه التَحَقَ بالسَّليمِ.

فما يُلقيه الشَّيطانُ في الأسماعِ مِنَ الألفاظِ، وفي القلوبِ مِنَ الشُّبَهِ والشُّكوكِ: فيه فِتنةٌ لهذَينِ القلبَينِ، وقوَّةٌ للقلبِ الحيِّ السَّليمِ؛ لأنَّه يَرُدُّ ذلك ويَكرَهُه ويُبغِضُه، ويَعلَمُ أنَّ الحقَّ في خلافِه، فيُخبِتُ للحقِّ قلْبُه، ويَطمئنُّ ويَنقادُ، ويَعلمُ بُطلانَ ما ألْقاه الشَّيطانُ؛ فيَزدادُ إيمانًا بالحقِّ ومحبَّةً له، وكُفرًا بالباطل وكَراهةً له. فلا يَزالُ القلبُ المفتونُ في مِرْيةٍ مِن إلقاءِ الشَّيطانِ، وأمَّا القلبُ الصَّحيحُ السَّليمُ فلا يَضُرُّه ما يُلقيه الشَّيطانُ أبدًا.

قال -ﷺ-: "تُعْرَضُ الفِتَنُ على القُلُوبِ كالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّى تَصِيرَ على قَلْبَيْنِ، على أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ" صحيح مسلم

فالفتن والشهوات تنسلُّ إلى القلب متتابعةً واحدةً بعد الأخرى كما ينسج الحصير عودًا عودًا، فأمَّا قلب المؤمن العامر بحبِّ الله ورسوله فإنه كالصفا أي: كالحجر الأملس في صلابته وتماسُكه ونقاوته وعدم

علوق شيءٍ به، فلا تضرُّه فتنةٌ ولا تستهويه معصيةٌ ولا يرضى بديلًا عمَّا ظفر به من حلاوة الإيمان في قلبه.

وأمَّا غيره ممَّن لم يتمكَّن حبُّ الله ورسوله في قلوبهم فإنَّ سهام الفتن وشهواتِ الدنيا تؤثِّر تدريجيًّا في ذلك القلب وتشوِّه صفاءَه حتى يكون «مُرْبَادًّا» وهو بياضٌ يسيرٌ مع السواد، فإذا انساق العبد أكثرَ فأكثر وراء أهوائه اختفى أثرُ البياض الباقي واسودَّ القلب وأظلم.

وهناك وصفٌ آخر لهذا القلب المفتون وهو الكوز المجَخِّي أي: المائل المنكوس، وهذا الميل كان في بدايته قليلًا بحسَب ما تسرَّب إليه من الفتن، ثمَّ ازداد ميلًا حتى انقلب وانتكس. منهاج الإسلام في تزكية النفس

أما القلب المخبت فإن الإخبات والتذلُّل والتواضع: ثمرةٌ جليلة من ثمار العلم، ولا يعرِفُ قيمتَه، ولا يذوق حلاوتَه، إلا أهلُ العلم والبيان، والأدب والعرفان، قال تعالى في إيضاح ذلك: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 54]، وكلما ازداد المرءُ من مَعِين العلم والإيمان، ورسخت قدمُه في المعرفة والبيان، اطمئنَّ قلبُه لذكر الله وتدبر القرآن.

إن القلب هو مَلِكُ الأعضاء، فإذا رُزِق الإخبات والاطمئنان واليقين، خشَع وسكن وذلَّ للهِ سبحانه وأناب إليه، وإذا أخبَتَ القلب فإن أثرَ ذلك يظهر على الجوارح والأعضاء، فيتحلَّى المؤمن بالأخلاق الفاضلة، والصفات الحسنة، والمزايا الطيبة؛ من صدقٍ وإيثار، وعدلٍ وإنصاف، ومحبة وقوة في طاعة الله، ونشاطٍ ومسارعة إلى الخيرات، وبعدٍ عن المحرَّمات والسيئات.